رحلة المغربي

خدمها عيدروس العيدروس

زاوية العيدروس العلمية بتريم



عنوان الكتاب :

رحلة المغربي

قياس القطع : ١٤,٨ x ٢١.

عدد الصفحات : ٣١ صفحة

تنفيذ : مكتب إتقان للمطبوعات.

تصميم الغلاف : مصطفى الجنيد

ربيع الأول ١٤٣٤هـ

إنتاج الزاوية

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رحلة المغربي

بذل النحلة لمن يحب الناصحين الكرام الأجلّة

بذكر ما أودعه المغربي من شمائل تريم وأهلها في الرحلة

تنبيه :-

إن هذه الرحلة يعضدها في تصديق ما ورد فيها من أخبار وقصص ما تواتر عن السلف من حسن السيرة وكمال الإتباع ، ورؤية الاستقامة فيهم مع التشمير في العلم والطاعات على مر العصور التي انقضت ، ففي كل عصر رأى الناس في آل باعلوي وفي محبيهم نماذج راقية ليس لها هم غير مولاها ، كانت تجسد هذه الشخصيات التي ذكرت في هذه الرحلة بكل تفاصيلها وخصوصياتها مما يجعل القارئ لها يتيقن أن تريم لايزال بها الخير والصلاح مادامت السموات والأرض ...

وقد كنا نقرأها مع بعض الحفاظ للقرآن الكريم في مسجد السقاف بإشارة من العم الفاضل سعد بن علوي العيدروس رحمه الله تعالى بعد أن ننتهي من حزب القرآن ليلة الجمعة وكان متفائلا بها ويحثني مع الطلبة على الاهتمام بالقراءة عامة .

عيدروس العيدروس

رجب ١٤٣٤هـ

الحمد لله

هذه رحلة رجل صالح مغربي رحل بعد الحج والزيارة للحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم من بندر جده في صحبة سيد شريف من أكابر السادة العلويين اسمه محمد بن أحمد وشيخ جليل من صلحاء آل أبي فضل وذلك عام خمسة وستين وثمانمائة وهو العام الذي توفي فيه سيدنا الإمام سلطان الملأ عبدالله بن أبي بكر العيدروس وقد قرئت على سيدنا الحبيب الإمام علي بن محمد الحبشي فاغتبط بها وذاكر عليها وقرئت مرارا عديدة على الحبيب الإمام أحمد بن حسن العطاس فأيدها وتكلم في شأنها وأوصى بالتمسك بما فيها ، وقال لاحت لي بارقة من شأن رحلة المغربي إلى تريم وقد وقع فيها بعض تحريف من حيثية الأسماء والمعرفة لا من حيث الوقوع وتخيل لي المجلس كله ودخوله على السيد إلى آخرها وأهل الباطن شالين القضية معهم يجيئون بخبر من المخبّأ والمغبّأ والذي ما يوافق كشفهم الصريح المطلق مايقبلونه ولو اجتمع عليه جميع القائلين انتهى كلامه رضي الله عنه .. وهذا أوان الشروع في الرحلة .

قال الشيخ المغربي رحمه الله :

هذه رحلتي إلى مدينة تريم إختصرتها غاية الاختصار، وقد رحل قبلي إلى هذه المدينة المباركة مدينة تريم والدي رحمه الله ، إلا أن رحلته كانت وأنا في سن الطفولية فلما ترعرت وصرت أحضر دروسه[1] سمعته ذات يوم يذكر رحلته إلى حضرموت ويخصص بالذكر بلدا هناك اسمها تريم ، وقد أغرق ذات يوم من الأيام في وصفه لما عليه الأشراف أهل البيت الطاهرين من العلم والعمل الساكنين

---

(١) سر محبته وامتلاؤه بأهل تريم بسبب كثرة ما سمع عن أبيه:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوهُ

بتريم حتى ختم وصفه لهم أنهم بالملائكة أشبه ، فأثر كلامه معي وصرت كلما سنحت لي فرصة عاودته عن أخبار رحلته .

وقد قلت له يوما :-

- لو دونتم رحلتكم ؟

فقال لي :-

- قد دونتها .

وما أتت عليه بعد ذلك إلا مدة يسيرة وفارق الدنيا رحمه الله ، ولقد فتشت بعد موته على تلك الرحلة فلم أعثر عليها غير أن وصفه لأولئك الأشراف الطاهرين المطهرين لا يزال يطنّ بأذني ، ومرارا كثيرة يخطر ببالي أن أرحل إلى تلك المدينة لزيارة من بها من العلماء والأولياء من أهل البيت النبوي حتى عزمت على أداء فريضة الحج وزيارة الشفيع الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ورجعت إلى بندر جُدَّه[1] وسألت عن حضرموت وكيفية الرحلة إليها ؟ فأحسن لي بعض معارف والدي فأرشدني إلى كيفية الرحلة إليها فصممت حينئذ عزمي على الرحيل إلى بلد تريم ، وبعد أيام حضرت الساعية الذاهبة إلى بندر الشحر، وعبرت فيها مجاناً فلما كنت في الساعية بين الحجاج العائدين إلى اليمن وحضرموت ، أخذت أسأل عن أهل حضرموت وأذكر تريم ، فدلني أحد الحجاج من أهل الشحر على رجلين هما من مدينة تريم أحدهما من الأشراف إسمه محمد بن أحمد ، والثاني تلميذه الشيخ بافضل فجئت إليهما وتعرفتُ عليهما ، وأخذت في مراقبة حركات ذلك الشريف وسكناته فعرفته رضي الله عنه جالساً في موضعه لا ينتقل منه إلا لقضاء حاجته ورأيته مفترشاً حصيراً ومعه شملة سوداء خفيفة ورأيته يتوضأ من إبريق معه

(١) جدّة بكسر الجيم سميت على شيخ قبيلة قضاعة وهو جده بن جرم بن ريان ويعود نسبه للجد التاسع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبالضم تعني شاطئ البحر ، وبالفتح بمعنى والدة الأب أو الأم تنسب لأمنا حواء المقبورة فيها .

كان من الخزف ، رأيته في الصباح يشرب قهوة كانت آنيتها من خزف أيضاً ورأيت الحجاج في الصباح يقدم بعضهم له كعكاً ناشفاً فيأخذ منه يسير ثم يتناهب[١] الحجاج فضلته للبركة بسؤرة[٢] وقمت ليلة من الليالي فوجدت الشريف جالساً والشيخ بافضل أمامه وهما يتدارسان القرآن عن ظهر قلب[٣] فعُدْتُ ونمتُ ثم استيقظت فوجدتهما على حالتهما الأولى فراقبتهما حتى طلع الفجر فأذن الشيخ بافضل للفجر فأسرعت وتوضأت وصلينا خلف الشريف مع كثير من الحجاج ، ولا تسأل عن رقة صوته[٤] وحسن صلاته، وبعد ذلك مكث الشريف وصاحبه الشيخ بافضل يتدارسان القرآن حتى طلعت الشمس ، أما الشريف فقام يصلي وأما الشيخ بافضل فقام ليعمل قهوة[٥] فذهبت وساعدته حتى قدمتها بيدي إلى المولى الشريف ، وشرب منها ما تيسر وتناول مما قدمه الحجاج له من الكعك ، وقد مرت علينا سبعة أيام بالبحر .

---

(١) من النهب ، والنهب من ينهب الأرض أي يقطعها بسرعة كبيرة وهو دليل على سرعة تلقفهم له قصد البركة

(٢) أي بقايا ريقه على تلك الآنية، والحجاج بالطبع من دول أخرى ولكن يبدو أن طلعة الشريف كانت مؤثرة في الجميع.

(٣) وهكذا هو فخر أهل تريم بالقرآن العظيم ، لأنه مثل البحر كل العلوم تتفجر منه مثل الأنهار والجداول :

ألا إنه البحر المحيط وغيره من الكتب أنهارٌ تمد من البحر

(٤) الاعتناء بتحسين طريقة التلاوة قال صلى الله عليه وسلم : ((ليس منا من لم يتغنى بالقرآن)) ، ((اقرؤا القرن بحزن)) ومما يجدر ذكره أنه ينبغي لقارئ القرآن التأني في قرائته حتى يفهم مايقول ويترك قراءة الهذرمة السريعة المفوتة للأجر ويقول الحبيب أحمد بن حسن العطاس رحمه الله (أنه لم يفتح علي في القرآن إلا عندما فككته حرفا حرفا) أي القراءة بتأني وتدبر ولن يحصل ذلك مع السرعة .

(٥) لهم الاعتناء بشرب القهوة لعدة أسباب منها أنها تنشط الجسم وتنبهه.. ووردت أخبار في استحباب بقاء رائحة البن في الفم عن كثير من الصالحين ، واكتشفوا حديثا أنها تعطي شاربها نوعاً من التفاؤل ، وكان يعتني بها الإمام الحداد آخر الليل ويصنعها بنفسه وكثير من السلف رضي الله عنهم .

ويوم الثامن أرست بنا السفينة في مرسى بندر [١] الشحر، وكنت في خلال تلك المدة أتمنى أن يسألني الشريف أو الشيخ بافضل عن إسمي وإسم بلادي أو إلى أين أقصد !

فلم يكن شيءٌ من ذلك فتذكرتُ وصف والدي رحمه الله لأولئك الأشراف حيث قال : -

(إنهم بالملائكة أشبه) فوصل إلى الساعية أرباب الزوارق فسمعت الشريف يقول للشيخ بافضل استأجر لنا زورقاً إجارة صحيحة . إلا أن ربان الساعية أحسن الله إليه تقدم حالاً إلى الشريف فقال :-

- (أن القارب مال[٢] الساعية حاضر لتعبروا عليه إلى الساحل معنا فتفضلوا) !

فقام الشريف وأخذ الشيخ بافضل ما معه وما مع الشريف من المتاع ، ولكن أتدري ما هو ذلك المتاع ؟؟

هو زنبيل فيه كل ما معهما من آنية وفرش وكتب وزاد جعله الشيخ على كتفه .

وأنزلوا ونزلت أنا خلفهم بإجازة ربان الساعية أحسن الله إليه فلما وصلنا إلى الساحل ، تقدم الشريف يمشي وتبعه الشيخ بافضل وزنبيله على كتفه فودعهم ربان الساعية وطلب منهما الدعاء فتقدم الشريف يمشي وتبعه الشيخ بافضل وتبعتهما حتى وصل الشريف إلى بيت فدخله ودخل الشيخ بافضل ولم يلتفتا إليّ فنظرت يميناً ويسرة فوقع نظري على مسجد كان قريباً من ذلك البيت فقصدته ونزلت برحبته[٣] فاضطجعتُ وغشيني النوم فلما استيقظتُ رأيت الشيخ بافضل داخل المسجد! فذهبتُ إليه وقال لي:

- أنت هنا ؟

---

(١) البَنْدَرُ : مُرْسَى السفن في الميناء (فارسى) ويطلق الآن على البلد الكبير ، يتبعهُ بعض القرى

(٢) مال أي التابع له أو حقه .

(٣) الرحبة هي الضاحية .

فقلت له :- أين الشريف ؟

فأشار إليه داخل المسجد فأتبعت بصري وإذا بالشريف قائم يصلي فأسرعت وتوضأت هناك من ماء مالح[١]، وبعدها أذن المؤذن لصلاة الظهر واجتمع الناس وأقيمت الصلاة وطلب إمام المسجد من الشريف أن يتقدم فامتنع وقضينا الظهر إلى أن خرج كل من في المسجد إلا الشريف والشيخ بافضل صاحبه ورجلان من أهل البلد ، فتقدم أحدهما إلى الشريف فسمعته يقول له :-

- هيا تفضلوا نعود إلى البيت .

فعرفت أنه رب البيت الذي نزل به الشريف فوثب الشريف ووثبوا كلهم ووثبت أنا معهم فتقدم إلي أحد الرجلين أحسن الله إليهما وقال :-

- متى جئتم البندر؟

فقلت له :-

- بصحبة مولانا الشريف .

فقال لي :-

- تفضل علينا .
- فقمت وتبعتهم حتى وصلنا المحل المهيأ لمولانا الشريف وعندما رآني مولانا الشريف تبسم في وجهي وقال لي :-
- أهلاً بصاحبنا في السفر .

فَسُرِرْتُ حينئذ سروراً عظيماً واغتنمت الفرصة وقتئذ فقلت له :-

---

(١) لقلة الماء العذب كانوا يتطهرون بماء البحر و يجوز التطهر به لقوله صلى الله عليه وسلم : ((هو الطهور ماؤه الحل ميته)) وتجوز الطهارة بماء البحر مع وجود غيره من الماء العذب أو عدمه ، وماء البحر يسمى ماءً قال رجلٌ للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا نركب في البحر أرماثا ومعنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هو الطهور ماؤه الحل ميته)) وقال أيضاً : ((من لم يطهره البحر.. فلا طهره الله)) .

- وإن شاء الله أكون معكم إلى تريم لزيارة أمثالكم بها .

فقال :-

- نية صالحه وهل حَدَثَتْ لكم الآن أم هي معكم من قبل ؟

فأخبرته بأن والدي رحمه الله قد رحل إلى تريم وأخبرته بما تقدم وبما سمعته من قول أبي وأني لا أزال من ذلك الوقت وخاطري متحرك للزيارة ، فبشرني ببشارة عظيمة وقال:-

- إن شاء الله تظفرون بما أملتم ، ثم قال للحاضرين إني أعتاد ضجعةً قبل الظهر[1] وهذا اليوم لم أتمكن منها فاستأذنكم فيها ، فتحولنا إلى مجلس آخر فقال لي الشيخ بافضل :-

- معكم نية لزيارة أهل البيت بتريم ؟

فقلت له :-

- نعم .

قال :-

- هل حججتم قبل هذا العام ؟

فقلت له :-

- لا وإنما حججت هذه السنة عن فرضي ، وهل حججتم أنتم قبل هذا العام ؟

فقال :-

(١) وهي نومة القيلولة المسنونة ، قال صلى الله عليه وسلم : (قيلوا فإن الشياطين لاتَقِلْ) وقال (استعينوا على قيام الليل بقيلولة النهار) وكان النبي ينام هاجرة الحر وكان يحذر من النوم بعد العصر ورد (من نام بعد العصر فاختلس عقله فلايلومن إلا نفسه) ، وتعريف القيلولة : قال في لسان العرب هي نومة نصف النهار ، وذكرت القيلولة في القرآن (أصحاب الجنة يومئذٍ خيرٌ مستقراً وأحسن مقيلا) ومما يجدر ذكره قول الشافعي رضي الله عنه: النوم على أربعة أنحاء : ١) على القفا نوم الأنبياء .٢) على اليمين نوم العلماء والعباد . ٣) على الشمال للملوك لهضم الطعام ٤) على الوجه نوم الشياطين .

- نعم قد حججنا وهذه المرة حججنا بالإجارة عن غيرنا[١] .

فقلت له :-

- وكم في الغالب مبلغ الإجارة من بلدكم ؟

فقال :-

- أن الشريف إستؤجر للحج والتسليم على جدّه بنحو خمس عشر ريالاً أشرفية والفقير بنحو ثمانية منها .

فقلت له :-

- وأين تكون هذه !!

فقال :-

- تكفينا لمؤنتنا ذهاباً وإياباً وزياده .... وهُنَا وددت أن يشرح المؤنة بالتفصيل فأحجمت عن ذلك حياءً .

وبالجملة فمدة إقامتنا ببندر الشحر أربعة أيام وبعدها توجهنا إلى تريم مع الجمّاله وكانت المسافة مابين الشحر وتريم سبعة أيام إلا أنها بمشي خفيف جداً .

وعشية اليوم الثامن وصلنا محلاً خارج البلد ومنه بعث الشريف بشيراً إلى تريم يخبر أهله[٢] بعودته وبعد برهة يسيرة تلقانا الكثير من الأشراف وغيرهم ويطلبون مِنّا كُلاً على حِدَته الاستغفار والدعاء[٣] ، وعرَّجنا على المقبرة لزيارة شريف

(١) الحج عن الغير يجوز ودليله المرأة التي سألت النبي عن أن أمها ماتت ولم تحج قال لها حجي عنها أرأيتِ لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ، اقضوا دين الله فهو أحق بالقضاء) فأجاز العلماء الحج عن الميت والمريض وغير المستطيع أ.هـ .

(٢) كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطرق أهله ليلاً إلا بعد أن يرسل إليهم وكان يقول (أمهلوا حتى ندخل ليلاً حتى تمتشط الشعثاء وتستحد المُغِيبة) والشعثاء المفرق شعرها ، والمغيبة أي التي تقوم بحلق الشعور الزائدة .

(٣) وهي من الأشياء التي تميز بها أهل تريم وفي الحديث (اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج) .

منهم يُدعى بالشـــريف المقدم[١] فزرناه فقط[٢].

ومن المقبرة إلى بيت الشريف محمد وقبل أن نصل إليه قال لي الشيخ بافضل :-

- تنْزل عندي ؟

فقلت له :- أنزل في أقرب مسجد من بيت مولانا الشريف .

فقال لغلام معه :-

- اذهب بهذا إلى مسجد بني أحمد [٣] .

فتوجهت مع الغلام حتى المسجد ورجع الغلام ودخلت أنا المسجد والوقت قبل المغرب وأخذت أطوف في أنحائه فعرفت محل الوضوء وغيره وكانت معي حقيبة

---

(١) الفقيه المقدم محمد بن علي مقدم القوم مؤسس طريقة الفقراء للعلويين ، طلب العلم وبرز فيه ولكنه جنح للتصوف وكانت تأتيه الواردات والأحوال بصورة متكررة وقال فيه الشيخ سعد الظفاري أنت يافقيه أهدى من أن تهدى .

زاهدٌ عابد أجمع الكل على تقدمته وعظيم منزلته قال الحداد : لا نفضل أحد على الفقيه المقدم إلا من ورد فيه نص مثل أويس القرني . ولد سنة اربعة وسبعين وخمسمائة بمدينة تريم ونشأ بها وحفظ القرآن العظيم وكان يبدي من معانيه المعنى الجسيم حال التعليم ثم اشتغل بتحصيل العلوم وبرع في العلوم العربية والفنون الادبية حتى اسكت كل متكلم وأمات ذكر كل متقدم وصارت العلوم لا يشار بها إلا إليه. وفي كتاب شرح العينية للعلامة الشيخ احمد بن زين الحبشي قال وكان من المحفوظين الملحوظين في صباه ومن المسددين المؤيدين في سره وجهره عظيم الجهد والطلب في أنواع القربات. شديد التمسك بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام واقتفاء آثار الصحابة والسلف الصالح قوي المجاهدة في تهذيب الأخلاق وملازمة آداب الشرع المتين والجد في تحصيل العلوم الشرعية والتغلغل في بحار جواهرها وتحصيل ياقوتها ودررها حتى فاق في جميع أنواع العلوم. لم يسمع أنه أدعى حالاً ولا مقاماً وغيرهما مما هو أحق به وأهله وشهد له الاكابر بذلك التواضع أما كرمه فحدث عنه ولا حرج وكانت داره مشيدة البناء رحبة الفناء يلجاء إليه الأيتام والفقراء والأرامل إذا أتاه ضيفاً قصد الإناء الكبير والطعام الكثير وكان يطيل الجلوس مع مواكلة الاصحاب لقول الإمام جعفر الصادق : "أطيلوا الجلوس مع الإخوان على المائدة فإنها لاتحسب عليكم من أعماركم" .

(٢) كان الإمام الحداد قد يكتفي فقط بزيارة الفقيه خصوصاً عند الانشغال ويقول الحج عرفة .

(٣) مسجد آل باعلوي ويسمى مسجد القوم ويسمى مسجد بني أحمد ، بُني في وقت علي بن علوي خالع قسم ثم جدده المحضار وقال بنايتي إلى يوم الدين والرواق القبلي من البناية القديمة ، واثنوا عليه بقوة .

صغيرة [1] فيها بعض متاعي وما أحتاج منه مما لابد منه فوضعتها أمامي وجلست حتى أذن المؤذن لصلاة المغرب فأقبل الناس أفواجاً أفواجا وأقيمت الصلاة وبعد أن فرغنا منها صليت ركعتين وأخذت أنظر من في المسجد من الأشراف فإذا بعضهم قائم وبعضهم ساجد وبعضهم جالس مستقبل القبلة ورأيت في ناحية من المسجد قوماً يدرسون القرآن عن ظهر قلب[2] ، ثم رأيت تلامذة مصطفين ينتظرون أستاذهم للتدريس ، فجاء الأستاذ وشرع في الدرس يقرأ لهم في إحياء الإمام الغزالي [3] ويقرر لهم تقريراً دقيقاً جداً ، ثم دققت النظر فيمن في المسجد فرأيت الجميع على نهاية من الأدب وما رأيت أحداً قط يتكلم مع آخر بل كل منهم في شغله مشغول بربه ، وعندئذ تذكرت ما قاله والدي رحمه الله أنهم بالملائكة أشبه ، وبينما أنا على هذه الحالة وإذا بمؤذن العشاء وبعده بمدة وجيزة أقيمت الصلاة وتقدم الإمام وأحرم بصلاة العشاء فغشيني من الهيبة والجلال ما غشيني عندما سمعت تكبيرة الإحرام وقد قرأ في الأولى سورة ق وفي الثانية المزمل ولا تسأل عن حسن تلك القراءة وتأثيرها في القلوب ، وما فرغنا من صلاة العشاء وجلست بعدها حتى عاد أولئك العُبّاد وانتصبوا يصلون أما أنا فمكثت في محل آخر قاعداً أمتّع بصري برؤية أولئك الطاهرين المطهرين .

وبعد ذلك جاءني الشيخ بافضل وقال :-

- هيّا بنا لنأخذ ما تيسر في بيت مولانا الشريف وأنه أرسلني إليك .

فقلت له :-

---

(١) يسن اتخاذ حقيبة من جلد يقال لها عبية ، كان صلى الله عليه وسلم يضع فيها سواكه ومشطه ومكحله ومِرآته راجع الشمائل أ.هـ .

(٢) مما يدل أن غالبية المتقدمين يحزبون القرآن حفظاً بعكس حالنا اليوم لم يبق إلا مسجد السقاف المحتفظ بهذه المزية .

(٣) اهتم آل باعلوي بالإحياء إذ كانوا يبحثون عن كتاب يُقررونه لأولادهم في التزكية فقدم الإحياء ففرحوا به كثيراً .

- إني جئت إلى هذه البلد لمشاهدة أولئك العُبّاد وأجدني في أنس عظيم ودعني انتظرهم حتى يفرغوا من صلاتهم لألتمس بركتهم بلثم أكفهم الكريمة .

فقال قم وأحدثك خارج المسجد(١) فقمت وخرجنا من المسجد فقال لي :-

- إن في هؤلاء من لا يعود إلى بيته إلا في الغد بعد أن يصلي الضحى ومثل هؤلاء في البلدة كثيرون وسترى في منزل الشريف من هو مثل هؤلاء وفوقهم علماً وعملاً..

فقلت له :-

- هيّا بنا ....

فتقدم وأنا خلفه حتى وصلنا المحل المهيّأ للجلوس فيه . فسلم الشيخ بافضل وردّ عليه أكثرهم وجلسنا وقلت لابد وأن يستنكروني فيسألوا عني الشيخ بافضل فلم يكن شيء من ذلك (٢) أما المجلس فمفروش من الحصير المتخذ من خوص النخل وفيه نحو من عشرة من الأشراف ولا تسمع لأحد صوتاً كأنما على رؤوسهم الطير ، وقد وددت أن أسأل صاحبي الشيخ بافضل عن أسمائهم فحال بيني وبين سؤالي جلال المجلس وهيبته وبعده حضر الطعام في قصعتين (٣) واجتمع الكل عليه وكنت قد اقتصرت على القصعة التي تليني وهي من خبز طعام الذرة ولا أعرف بماذا كان إدامها لأنها مثرودة بمرقة لا لحم فيها ، فلما رآني المولى الشريف مقتصراً على ماحولي .. قال لي :-

- كُل من هذه القصعة الثانية .

فامتثلت وأكلت منها وكان إدامها فيه حموضة ! .

---

(١) وفيه أنه ينبغي عدم الكلام في المسجد إلا بالكلمات القليلة فإن كان كثيراً فالأفضل الخروج من المسجد .

(٢) المؤمن مشغول بنفسه مقبل على ربه لايحب كثرة القيل والقال وكثرة السؤال ، قال الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال).

(٣) في إناءين مختلفين .

وعندئذ قال الشريف مخاطباً لي :-

- إن الإقامة ببلد تريم لاتصفوا إلا بالزهد والقناعة بميسور العيش .

فأجابه أحد الأشراف كانت على رأسه خوذة فقال :-

- لو زهدنا حقيقةً لما جمعنا بين إدامين وإنما الزاهد الحقيقي هو متبوعنا الأعظم صلى الله عليه وسلم .

فقال آخر :-

- الحمد لله على اتصالنا به الحمد لله على وجود رجال مِنّا أهل البيت هم موجودون اليوم بتريم يطوون الأشهر لايذوقون فيها غير الأسودين التمر والماء ..

فسمعت واحد منهم يقول :-

- نعم نعم ...

ولما رفعنا أيدينا عن الطعام تقدم الشيخ بافضل فاستأذنهم ليذهب إلى بيته فأذن له المولى الشريف وبعده استأذن الجميع في الإنصراف وانصرفوا وبقيت أنا آخر القوم .

فقال لي الشريف :-

- إلى أين تذهب إنّ هذا المنزل هو مُهيَأ للزوار الغرباء ..

فقلت له :-

- إلى المسجد .

فقال لي :-

- إن أردت أن لاتنام فاذهب إلى المسجد لأنك زائر ...

فقلت له :- إن شاء الله ....

وانصرفت وأمر غلاماً يوصلني إلى مسجد بني أحمد فأوصلني ورجع ، أما أنا فدخلت المسجد وقد تركت حقيبتي فيه فلما دخلته رأيت الذين فارقتهم فيه وهم على حالتهم التي تركتهم عليها وما بقي غير مصباح ضئيل نوره ، يصلي بالقرب منه رجل

طويل متأبطاً مصحفاً ينشره تارة ويطويه أخرى ، وحالاً أخذت أصلي بعدية العشاء والوتر فلما فرغت من صلاتي اعتكفت وجلست ممتلئاً أنساً بمشاهدة أولئك الناس الذين أكرمهم مولاهم باصطفائه لهم (١) وأخذت أفكر في نفسي وأقول يا هل ترى هل يوجد في مسجد آخر في بلد أخرى أمثال هؤلاء ؟؟

ولكنني تذكرت وصف والدي رحمه الله لأهل البيت بتريم حيث قال أنهم بالملائكة أشبه فغلب على ظني أنهم معدومي النظير ، وبينما أنا على تلك الحالة وفيما أظن قد مضى من الليل نصفه الأول وإذا برجل دخل إلى المسجد فأسرج مصباحاً وبعده استقبل القبلة وانتصب مع من المنتصبين ، وبعده جاء آخر وهكذا إلى أن غص المسجد بالزحام وعاد المسجد إلى حالته التي كان عليها ماعدا الأستاذ المدرس سابقاً .

وبعد أن أذّن المؤذن للفجر الأول رأيت رجلاً دخل فتخطى الصفوف حتى جثى بين يدي أحد الأشراف الشيوخ وأسرّ إليه كلاماً ورجع من حيث أتى فلما أذن المؤذن للأذان الثاني للفجر وركع القوم ركعتي الفجر تكلم ذلك الشريف وقال أقرؤوا الفاتحة للسيد أحمد بن أبي بكر فإنه قد انتقل إلى رحمة الله تعالى ..

وبعده قال أحدهم :- رحمه الله ، ولقد صليت العِشاء البارحة خلفه !!

ثم أن الشريف الأول قال :- يا عبد الرحمن إذهب إلى مسجدهم هناك وقل لهم عمي يقول لكم دعوا الشيخ باغشير يصلي بكم صلاة الصبح وغداً سنعين لكم واحد للإمامة .

وبعد ذلك أقيمت الصلاة وتقدم الإمام وصلى بالقوم فقرأ في الأولى بعمّ يتساءلون وفي الثانية إذا السماء انشقت وانقضت الصلاة ولا أعرف فيما مضى من عمري أني

---

(١) الاصطفاء هي حالة تقريب الرب لعبده بأن يوفقه لفعل المحبوبات لديه كالطاعات بأنواعها وخصوصاً الطاعات التي تكون خلية من الرياء والعجب فتكون خالصة لله فتكون هذه هي علامة اصطفاء الله له وساعة إخلاص فيها الخلاص ألا لله الدين الخالص ، الدنيا ساعة فاجعلها طاعة أي طاعة خالصة لله مخلصة لله ولايقبل الله عملاً من قلب ساه لاه .

صليت الفجر بوضوء المغرب إلا تلك الليلة وقد عددتها من بركتهم [1] رضي الله عنهم آمين أما أكثر المصلين فقد لزموا أماكنهم حتى الإسفار فانفضَّ أكثرهم إلى صحن المسجد[2] واصطفوا فعرفت بأن هناك درساً وبعده بزمن يسير قام من الصف أحد الأشراف وجلس أمام التلامذة وشرع يقرأ لهم في شمائل الإمام الترمذي رضي الله عنه ولا يذكره صلى الله عليه وسلم إلا بقوله الحبيب الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم واستمر الدرس إلى أن كادت أن تطلع الشمس فختم الدرس بقوله إلى هنا نختم الدرس لأجل تشييع الجنازة وختم الدرس ، وبينما أنا على حالتي وإذا بالشيخ بافضل قد أخذ بيدي وقال قم فتناولت حقيبتي وخرجنا من المسجد إلى بيت مولانا الشريف فلما دخلنا حالاً جلس الشيخ وجلست والتراب فرشنا فقال لي الشيخ :-

- كيف أنت وكيف بتَّ ؟

وأخبرته بما كان لي وسألته عن الرجل المتأبط للمصحف يطويه تارة وينشره أخرى فقال أما المصباح فيأتي به معه من بيته ويستضيء به لأنه ربما أرتج عليه في القراءة ، ثم جاء غلام يحمل إلينا قهوة وقطعتين من خبز الذرة وبعد أن شربنا وأكلنا قلت للشيخ بافضل :-

- أين مولانا الشريف ؟

فقال :-

- قد ذهب لتشييع جنازة بعض الأشراف فهل لك في التشييع ؟

قلت له :- نعم ولكني أريد أن أقضي حاجتي وأتوضأ.

فساعدني أحسن الله إليه وتوضأت ، وذهبنا إلى بيت المتوفى فوجدناه قد امتلأ بالمشيعين يتلون كتاب الله عن ظهر قلب إلا القليل حتى خرجت الجنازة يتقدمها رجل

---

(١) ورد عن الكثير من التابعين الصلاة للفجر بوضوء العشاء وعدد من أئمة الباعلوي كالسقاف والعيدروس وغيرهم .

(٢) باحة المسجد ، كأنه وقت صيف .

يجهر بالتهليل تارة ويسكت أخرى ومشى المشيعون وكنت منتظراً أن أسمع بكاء الباكيات والنائحات تبعاً لعادة بلدي فلم أسمع شيئاً من ذلك مطلقاً حتى وصلنا الجبانة، وحالاً نودي للصلاة عليه فتقدم للصلاة عليه غلام شاب من الأشراف لا يتجاوز سِنّه السابعة عشر من السنين فلما سلم من الصلاة أنفتل وقابل القوم وقال :-

- يا معاشر المسلمين لقد قدم على مولاه خالي السيد أحمد رحمه الله وقد عهد إليّ أن أصلي بالناس عليه وأن أطلب له منكم الدعاء والمسامحة وأنه يوصيكم جميعاً بتقوى الله ويوصيكم أهل البيت خاصة بالابتعاد عن مخالطة أضدادكم ويقول إعلموا أن مدار التربية عليها وأنه لا يتخلف عن سلوك طريقة أهله الصالحين إلا من أهمل أبواه تربيته وتركاه يخالط أضداده ، وهذا ما عهد به إلي أن ابلغكموه وسكت .

ثم قام آخر وقال :-

- تمسكوا بهذه الوصية وعضوا عليها بالنواجذ تفلحوا تفلحوا تفلحوا ..

ثم حُملت الجنازة وشيعت حتى المقبرة ومكثنا هناك ما شاء الله وتفرق الناس وكنت ملتزماً للشيخ بافضل فلما وقع نظري على مولاي الشريف تقدمت إليه ولثمت يده وتأخرت وتقدم إليه الشيخ بافضل وسارَّه بكلام وتأخر وأمسك بيدي ومشينا معاً وقال لي :- الآن أذهب بك إلى منزلي.

حتى وصلنا بيت الشيخ بافضل وكانت بيوت بلدة تريم لاطئةً بالأرض مبنية بالتراب المخلوط بالتّبن فدخلنا بيت الشيخ بافضل وجلسنا فابتدرني الشيخ بافضل بقوله :-

- أهلاً بك وسهلاً كيف رأيت البلد ؟

فقلت :-

- رأيت أهلها أهل البيت كما وصفهم والدي وفوق ذلك . وهل لهم طريقة مخصوصة بهم في سلوكهم ومدوّنة في كتبهم ؟

فقال لي :-

- إن طريقتهم الكتاب والسنة وتطبيق العلم على العمل وطريقتهم مدونه في أعمالهم وأفعالهم ويربوّن أولادهم باحتفاظهم بهم في بيوتهم ويعلمونهم بأفعالهم قبل أقوالهم ومعلومكم أنهم في بيوتهم مشغولون دائماً بربهم حتى من يخدمهم كانوا على غاية من الصلاح والاستقامة ، وربما منعوا أولادهم من الذهاب إلى حضور مجالس المدرسين الذين هم على غاية من الإستقامة والكمال خوفاً عليهم من لقاء بعض أضدادهم حين الذهاب والإياب في الطريق فيسترقون من طباعهم ، هكذا بلغت بهم المحافظة على تربية أولادهم لأنهم علموا حق العلم ما في المخالطة من الخير والشر وأنت سترى بعينك ما يؤيد ما قاله والدكم وقلته لكم ونحن والحمد لله بينهم وفي بركتهم ونسأل الله أن يرزقنا كمال الأدب المرضي عند الله معهم فإن الأدب المعلول لا يفيد صاحبه أبداً بل ربما عاد عليه بالضرر .

وهنا دخل علينا غلام معه القهوة فوضعها بيننا وذهب فتناولها الشيخ وجعلها في آنية صغيرة من خَزَفْ وناولني منها إناءً واحداً وهُنا قلت للشيخ :-

- من أين يُجلب إليكم البُن ؟

فقال :- من اليمن .

فقلت له :- لعل ما تحتاجون إليه كذلك يأتيكم من اليمن .

فقال :- لا وأنما هي القهوة فقط من اليمن وأغلب ما نحتاج إليه إنما هو من بلدنا إلا إبرة الخياطة ومواسي الحلاقة وكحل العيون فيأتينا به الحجاج مع رجوعهم من الحج فقلت له :-

- وهذه الثياب تنسجونها هنا ؟

فقال:- نعم وتزيد عن الحاجة فيذهب بها التجار إلى اليمن فيبيعونها هناك معوضة بالبن .

فقلت له :- وأي ضريبة تتعاملون بها في أخذكم وعطائكم ؟

فقال:- إن أكثر المعاملة هنا إنما هو بالحنطة الحمراء والحنطة البيضاء والتمر وتوجد هنا ضريبة بالتعامل بها ولكنها قليلةٌ جداً ولا توجد إلا عند بعض الناس مكتوب فيها لفظ الجلالة ويقال أن مائة قطعة منها تساوي ريالاً واحداً في اليمن .

فقلت له :- وكيف السبيل هنا إلى تكسير الدنانير ؟

فقال :- لا وجود للدينار عندنا ولا نعرفه .

وعندها عاد إلينا الغلام ووضع بيننا إناء فيه تمر وأكلنا منه ما تيسر وبعد ذلك قال لي الشيخ أولى لك أن تنام قليلاً فإذا جاء الوقت أيقظتك ، فقلت له أحسن الله إليك وخرج من عندي واضطجعت وغشيني النوم ، حتى عاد فأيقظني فانتبهت وجلست وجلس هو أمامي وقال :-

- قرُب وقت الظهر فهل لك في الوضوء ؟

فقلت له :- نعم ...

فدلني على محله فتوضأت وعدت إلى محلنا فقال لي الشيخ بافضل :-

- (أن الشريف الذي توفي وشيعنا جنازته اليوم كان إماماً للصلوات الخمس في مسجد من مساجد آبائه وسيجتمع بعض الأشراف الآن في ذلك المسجد وينصبون غيره لتلك الوظيفة، فهل تحب أن تحضر وترى) ؟ .

فقلت له :- نعم أحسن الله إليك ..

فقال: - بسم الله نذهب إلى ذلك المسجد .

فخرجنا من البيت وتوجهنا إلى المسجد ودخلناه والمؤذن يؤذن للظهر فيه وبعد أن فرغ من الأذان أخذنا في صلاة التحية والراتبة ومافرغنا من ذلك إلا وقد اجتمع ناس كثيرون من الأشراف وغيرهم حتى أقيمت الصلاة ، وتقدم أحد الأشراف فصلى بالقوم الظهر .

ولما انقضت الصلاة وراتبتها والناس جلوس تكلم أحد الأشراف الشيوخ وقال :- رحم الله أخانا أحمد بن أبي بكر فلقد مضت عليه ثنتان وخمسون سنة وهو محافظ على الجماعة بهذا المسجد وكان هو الإمام كما عرفتموه وما عُرِفَ أنه تأخر عن ذلك إلا لعذر شرعي ، جاءني مره وقال أكلت يوم الثالث عشر من أيام التشريق لحماً فشوش علي في باطني واستمر معي ذلك التشويش نحو أربعين يوماً فآليت من بعد ذلك أن لا أذوق اللحم مطلقاً ، وهو كما عرفتموه على جانب عظيم من الزهد في الدنيا والصبر على الفقر مع نهاية العفّة وكانت أخته الشريفة مريم لا تفارق الوضوء إلا بالنوم ولقد أَخْبَرَتْ بحضرة كثير من الشرائف اللاتي أتينها ضحوة هذا اليوم للتعزية به أن أخاها أحمد ما شبع قط اختياراً(١) وكان لا يعرف النوم في شهر رمضان إلا بعد طلوع الشمس ويصلي صلاة الضحى ويستيقظ قبل الظهر فيتوضأ ويقرأ القرآن من أوله إلى سورة يوسف قبل أن يؤذن للظهر . وإنا قد اجتمعنا الآن هنا لتعيين واحد منكم يقوم بوظيفة الإمامة في هذا المسجد وفيكم الكفاية والأهلية فاشكروا الله على ذلك فأجابه أحد الحاضرين من الأشراف بقوله :-

- إن المحافظين على صلاة الجماعة بهذا المسجد لاينقصون عن خمسة وعشرين من أبنائكم وفيهم تسعة من العلماء العاملين المدرسين فعيّنوا منهم من تحبون .

فتكلم آخر وقال :-

- لقد أحسنت يا جَدْ عبدالله دفعتها عن نفسك وأنت تعلم أنك أحق بها من الجميع ومازال القوم يتدافعون تلك الوظيفة حتى آل بهم الحال إلى القرعة فاقترعوا فخرجت القرعة على الشريف عبدالله الذي كان أول من دفعها عن نفسه ! فقبلها بلا استثناء ولا كلام ، وبعد ذلك قرئت الفاتحة وختم المجلس بالدعاء وانفض الحاضرون وخرجنا من المسجد ولقد كنت أظن أن لهذه الوظيفة أجرة قياساً على

(١) خرج بالجوع الاختياري الجوع الاضطراري وشتان مابين المقامين .

مافي بلدنا وأخبرت الشيخ بافضل بذلك وقلت له (ولكن أشراف تريم هم أمّه لأنفسهم) .

فقال لي الشيخ بافضل وكذلك يبعثون يوم القيامة أمةً لأنفسهم رزقنا الله الأدب الحقيقي معهم آمين ، وهنا قلت للشيخ بافضل :-

- من فضلكم أن تتركوني في أحد المساجد وتمضوا لشأنكم .

فقال لي :-

- أذهب بك إلى مسجد فيه درس وامكث به حتى أعود لك ، ومشينا معاً حتى وصلنا إلى المسجد فقال لي ادخل واجلس واسمع حتى أعود لك ، فدخلت المسجد فرأيت حلقة الدرس فملت إليها وجلست فنظرت إلى المتصدر فإذا هو غلام لا يتجاوز الخامسة عشر من السنين من عمره ثم نظرت إلى المريدين حوله فإذا فيهم المراهق والكهل والشيخ فعجبت ، ثم عدت فنظرت إلى ذلك الفتى المتصدر فرأيت على رأسه عمامة بيضاء تضم تحتها أذنيه وعليه ثوب أبيض أيضاً واسعةً أكمامه وفي مرفقيه رقعتان وفي منكبه الأيمن رقعة مصدرة بارزة وأمامه شيخ كبير مهيب يقرأ ويسكت فإذا سكت تحرك ذلك البحر الخَضِم فقذف من مكنون جواهره مالا سبيل إلى التعبير عنه ، وبعد ذلك بمدة يسيرة ختم المتصدر الدرس وحضرت القهوة وأديرت على الحاضرين فشربوها إلا واحداً منهم تركها أمامه فلم يشربها فقال له من بجنبه :-

- اشرب القهوة !

فقال :- لا حاجة لي بها .

فقال له :-

- هل أنت صائم ؟

قال :- لا ...

فتكلم ذلك الفتى المتصدر وقال :-

- إنه أشدكم محبّةً للقهوة وله أيام منها وما تركها إلا لشدة توقانه إليها .

وهنا دخل رجل من الأشراف ومعه غلام يمكن أنه في سابع سنةٍ من عمره وصافح القوم وجلس فقال الفتى المتصدر للرجل الداخل :-

- خذ ذلك الإناء واشرب مافيه من القهوة فإنها من نصيبك ونصيب هذا الغلام ولعله ولدك ؟

فقال :-

- نعم وقد جئنا به لتدعو له بالفتوح ليكون مثل من في سِنّه من أبنائكم وأبنا غيركم وقد بذلنا جهدنا فيما يحبه ويفرح به لأجل يجتهد في طلب العلم والعمل ولكنه يحب اللعب .

فقال ذلك الفتى لذلك الرجل :-

- أنت دخلت ونحن نتكلم في واقعة حال في القهوة وأخبره بترك الشريف عمر للقهوة ، قال وهكذا كانت طريقة أجدادك وأجداد ولدك يفطمون أولادهم عن الشهوات مِنْ مثل الذي يحبه ولدك ويفرح به ، وقد أخبرني والدي رحمه الله قال كنت وأنا صغير أحب القهوة وأعوِّل عليها خصوصاً بعد رجوعي صباحاً من المسجد إلى البيت وذات يوم من الأيام عدت إلى البيت على عادتي فوجدت أمي في مصلّاها على عبادتها فجئت إليها وسلمت عليها فالتفتت متبسمة فسُررتُ سروراً عظيماً بابتسامتها في وجهي ثم قالت لي :-

- يا عبد القهوة هذا اليوم ربنا ما أعطا نحن قهوة ولو أنك تركت شرب القهوة لكان أحسن .

فقلت لها :-

- إنما أشرب القهوة لِما أجده منها من النشاط يوم أشربها ولا كذلك يوم لا أشربها .

قال فقالت لي أمي :- ياولدي حفظك الله أنت في العاشرة من السنين من عمرك والنشاط ضروري لك فإن رضيت على نفسك أن تكون عبداً لشهواتك فقد خالفت

طريقة أهلك . وأعرَضَتْ عني وقامت وأحرمت بصلاة الضحى ، قال والدي فرأيت أختي خارج باب المنزل تشير علي بالمجيء إليها فقمت إليها وقبلت يدها وأخذتني إلى مجلس آخر وجلست وأجلستني أمامها وقالت :-

- قد سمعت ما قلته لأمي ومن متى عرفت هذا الكلام ؟ فيا أخي تحقق أن المرشد لك إلى هذا الكلام مع أمك هو شيطان الشهوات فتب إلى الله تعالى من ذنبك كما تبت من القهقهة فيما مضى !

قال والدي فَسَكَتُّ فمدت يدها وصافحتني وقالت لي هيّا تب إلى الله على يدي بصدق وأنت منشرح الخاطر قال والدي فتبت إلى الله ثم قالت لي أختي متع الله لي بها :-

- اعلم يا أخي أنّ من لا توبة له فلا حال له ولا مقام وهي بمثابة الأرض للبناء ومن لا أرض له لا بناء له ، ولا سبيل إلى التقرب إلى الحضرة القدسية الإلهية إلا بالتخلي أولاً من الأوصاف الذميمة لأنها نجاسات معنوية كما لا يمكن التقرب بالعبادات مع النجاسات الصورية ، وأنت يا أخي انقش كلامي هذا على قلبك .

ثم ناولتني قطعة من خبز الذرة ثم قال والدي فصممت العزم على كمال الإقتداء بجدي الأعظم صلى الله عليه وسلم ولم أعرف من بعد ذلك أني شبعت بل قد عصبت الحجر على بطني من الجوع مراراً ، وسكت والدي فقلت له :-

- إنك قلت إن عمتي مريم قالت لك كما تبت من القهقهة ، وما هي توبة القهقهة

فقال لي والدي :-

- بارك الله فيك كنتُ وأنا ابن ثمان سنين رأيت ما يضحكني فضحكتُ وقهقهتُ وكانت أمي تراني وتسمعني وأختي حاضرة أيضاً وغيرها فلم أشعر إلا بأمي تكفكف دموعها ثم قالت :-

- أصبحت بيوتنا أهل البيت النبوي الآن كالأسواق محل الغفلات فما هذه القهقهة يا ولدي بارك الله فيك !!!

فابتدرتني أختي متع الله بحياتها فاستتابتني وبعد أن استتابتني من هذه وأنا في الثامنة من السنين ، ومن تلك وأنا في العاشرة فكل من في البيت حتى الخدّامين كانوا يوبخونني ويقولون لي عسى توبة مقبولة ، ثم أن ذلك الفتى المتصدر حفظه الله التفت إلى ذلك الرجل وقال له :-

- على من قرأ القرآن ولدك ؟

فقال له :-

- على المعلم عبدالله .. فسكت الفتى طويلاً، ثم قال :-
- إن عيون الصبيان هي الباب الواسع النافع في تربيتهم وتعليمهم فما يتعلمونه بالمشاهدة من أفعال آبائهم وأمهاتهم وممن يختلطون بهم في صغرهم ينتفعون به انتفاعاً عظيماً أو يتضررون به ضرراً عظيماً ولا كذلك يتعلمونه بآذانهم ، فما يشاهدونه بعيونهم يقتدون به ولو من غير قصد وإذا نظرت إلى أفعال الصبيان وحركاتهم رأيتهم يتمثلون بمن حولهم ويحاكون فيما يرونه صادراً منهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وصلاح أولادنا إذا نحن تحققنا ما تقدم متوقف على ما يشاهدونه في بيتهم الذي تربَّوا فيه وصفاتنا تظهر في أولادنا فما يرونه أولادنا من أفعالنا اليومية المختلفة تؤثر فيهم تأثيراً بليغاً وتبقى معهم زمناً طويلاً وإذا مات آباؤهم فقد ينسون تعاليمهم التي سمعوها بآذانهم ولا ينسون أبداً ما شاهدوه بأعينهم والآباء والمعلمون وإن كان فيهم همة ومثلهم غيرهم فهم لا يقدرون على تحريك الناس للعمل ما لم يكونوا هم من أهل العمل لأن الناس يميلون بطبعهم إلى الإقتداء بمن حولهم في العوائد والأخلاق وإن لم يقصدوا ذلك وأنّ كل من ينظر إلى شخص فاسد لا يلبث أن يكتسب منه شيئاً يضرُّ به فكيف بمن يخالط المفسدين ، وهذه الشريفة نور بنت محمد لم تدخل بيتاً من البيوت وترددت على أهله إلا طهّرت ما فيه وصيرت كلام أهله جليلاً وقوياً وما ذلك إلا لإستقامتها

التي جعلت لها هذا التأثير في القلوب ، وما نشاهده اليوم من الصلاح في أكثر إخواننا أهل البيت ومثله ما نسمعه فيمن تقدم عن آبائنا فإنما حصل لهم من مشاهدة آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم الصالحين الذين تربَّوا بينهم ، وأنت يا أخي احفظ ولدك من مخالطة من لا تليق به ولا بنا مخالطته حتى ولو كانوا من أبناء جنسنا الغافلين آباءهم المغرورين بنسبهم والمشغولين بما لا يفيدهم ، ونحن داعون لك ولولدك (١)..

وسكت قليلاً وحالاً أذّن المؤذن لصلاة العصر وأنا معجب غاية الإعجاب من ذلك الفتى الشاب المتجلبب بوقار الشيوخ وجلالهم وهيبتهم ، ولكن ما يصدر من أهل البيت النبوي لا يُنكر ولا يُستنكر ولعمري إنهم أهل لذلك وفوق ذلك إني سمعت ذلك الكلام ولم أتمكن من حفظه ولكن رأيت حينئذ من يكتبه من الحاضرين فطلبت منه أن يستنسخ لي منه نسخة وما قصّر فكتب لي ذلك أحسن الله إليه آمين .

وبعد ماتقدم أقيمت صلاة العصر وما تقدم غير ذلك الفتى الشريف حفظه الله وأمد في أوقاته آمين ، وبعد أن انقضت صلاة العصر تقدم المأمومون يلثمون أكف الشريف فتأخرت أنا حتى لم يبقى غيري فتقدمت إليه وجثوت بين ركبتيه وأخذت يده ولثمتها وقلت له :-

- غريب زائر طالب دعاكم .

فقال :- بارك الله فينا وفيك .

فقلت له :-

- وقدمت إلى هذه البلد مع مولاي الشريف محمد من الحج.

فقال:- هنيئاً لكم ونطلب منك أن تستغفر لنا ونقرأ الفاتحة بنية قبول إستغفارك لنا فامتثلتُ أمره واستغفرت الله لي وله وقرأت الفاتحة ، ثم قلت له :-

---

(١) هذا المقطع التربوي الذي تلفظ به الشريف ضم خلاصة أساليب التربية ومدار قيامها ... رضي الله عنه

- أطلب منكم أن توصوني وتجيزوني وتدعو لي .

فسكت وقال :- أوصيك ونفسي بتقوى الله والإجازة اطلبوها من الوالد محمد وأما الدعاء فنحن داعون لكم بخير ...

ونهض من محله وخرج من المسجد وخرجت خلفه من المسجد وذهبت أمشي خطوات وأنا أشكر الله تعالى على منّه علي بزيارة أشراف هذه البلد أهل البيت الطاهر وترحمت على والدي مِراراً فوق عادتي إذ لولاه لما اهتديت إلى هؤلاء الأولياء الحقيقيين ، وقبل المغرب بمدّة وجيزة عاد إلي الشيخ بافضل ولما التقيت به قال :-

- حضرتم الدرس ؟

فقلت له :- نعم أحسن الله إليكم واطلب منكم أن تعينوني على محل آوي إليه ولو بأجرة .

فقال :- هكذا تحبون ؟

فقلت له :- نعم .

فقال لي :- تحبونه من الآن ؟

فقلت له :- نعم .

فقال :- ممكن إن شاء الله تعالى فهيّا بنا إليه .

فتوجهنا معاً حتى أوصلني إلى دويرة فنادى (يا سالم) .

فخرج إليه رجل قد أنهكت قواه الشيخوخة وبعد مصافحته قال له الشيخ بافضل:-

- هذا غريب جاء هنا للزيارة ونطلب منكم تؤونه مدة أيام .

فحالاً قال الشيخ :-

- قبول هذا هو هنا ينزل وبيت الخلاء قريب ولكن إن فتح الله علينا بشيء اقتسمناه معه فقلت له :- لا بأس لا بأس ..

وحالاً دخلت وجلس الشيخ رب المنزل واستأذن الشيخ بافضل وانصرف فقال لي ربُّ المنزل :-

- هو أنت الغريب جئت مع الشيخ محمد بن أحمد ؟

فقلت له :- نعم .

فقال :- وحججت هذه السنة ؟

فقلت له :- نعم .

فقال :- استغفر لنا واقرأ لنا الفاتحة فامتثلتُ ، وبعد ذلك قال لي :-

- حجٌ مبرور وسعي مشكور وذنب مغفور وتجارةً لن تبور يا لها من سعادة الحج ومصاحبة محمد بن أحمد إلى تريم ، اعذر اعذر بغينا لك عشاء ولكن ما معنا إلا تُميره وبانتظر إلى بعد العِشاء إن فتح الله بشيء وإلا بانقدم الموجود .

فقلت له :- عندي ماقد فتح الله علي به ولكن ائتوني بمن يذهب إلى السوق .

فقال لي الشائب :- الوقت مغرب وغداً بيكون خير ولعلك متوضئ ؟

فقلت له :- نعم .؟

فقام من عندي وذهب ثم عاد وقال :-

- هيّا نريد المسجد فخرجنا معاً وجئنا إلى المسجد وصلينا المغرب واعتكفنا حتى العِشاء ورجعنا البيت وجيء بالعشاء فقال الشائب فتح الله ، ناس عندهم عُرُسْ وأرسلوا لنا عشاء جزاهم الله خيراً فوضع بيننا في قصعة فأكلناه فقال الشائب هذا عندنا يسمونه الخمير وبعد أن اكتفينا منه قال الشائب الآن وقت النوم ولعلك تعبان ، والمقام متى تقوم من النوم لأجل ننبهك ؟

فقلت له :- متى قمت أنت من نومك فأيقظني .

فقال لي :- أنا شيبه ولا يجيئني النوم إلا قليل يا ولدي .

فقلت له :- أيقظني قبل طلوع الفجر بقليل . ثم قال لي :-

- عرفت مكان الخلاء ؟

فقلت له :- نعم ...

وكان مصباحنا تلك الليلة القمر إذ هي ليلة الرابع عشر من شهر محرم الحرام واضطجعت ونمت براحة حتى كان الوقت فأيقظني وتوضأت وخرجنا معاً إلى المسجد واعتكفنا حتى أذان الفجر وتقدم الإمام وصلى بنا صلاةً طويلة جداً قرأ في الأولى سورة الحديد وفي الثانية بالحاقة وانتهت الصلاة وبعدها بمدة طويلة اصطفَّ المريدون أمامه يُدرّس لهم في منهاج العابدين (١) وكلهم كأنما على رؤسهم الطير لا يتكلمون ولا يسألون بل رأيتهم والهيبة قد أحدقت بهم والسكينة قد غشيتهم وانتهى الدرس قبل طلوع الشمس بزمن يسير وبقينا في المسجد إلى أن طلعت الشمس ثم صلينا صلاة الإشراق ورجعنا إلى البيت ، وجلس الشائب وجلست فقلت له :-

- من ذلك الإمام الذي صلى بنا الصبح ؟

فقال :- هو الشيخ باعُبَيْد من الكبار الجم الزيان ممن يقومون الليل في ركعة واحدة

فقلت له :- أين يسكن ؟

قال :- هو جاري .

فقلت له :- هل يمكنني أن أزوره ؟

فقال :- يمكنك وخصوصاً الآن .

فقلت له :- الآن أزوره .

فنادى رجلاً جاره فأتى فقال له :-

- اذهب بهذا الرجل إلى باعبيد .

فذهبت معه واستأذن فدخلنا ورجع الرجل .

(١) منهاج العابدين للإمام الغزالي من أواخر الكتب التي ألفها الامام ووضع فيها عصارة فكره وهو مؤلف للسير إلى الله

أما أنا فسلمت عليه وصافحته وجلست فقال :-

- من أين ؟

فقلت له :- غريب جئت إلى هنا مع الحاج الشريف محمد بن أحمد وصاحبه بافضل وقصدي زيارة أهل هذه البلدة وأنتم في الجملة وقد صليت الصبح خلفكم اليوم .

قال :- وهل حضرتم الدرس ؟

فقلت :- نعم .

فقال لي :- إنّ الطلبة الذين رأيتهم في الدرس هم من أهل بيت الرسالة وما نتكلم به معهم فإنما هو منهم أخذناه ، وعنهم رويناه .

ثم إني أخبرته بما سمعته من والدي في وصفهم .

فقال لي :- في أي عام زار والدكم هذه الديار ؟

فقلت له :- منذ ثلاث وثلاثين سنة عام اثنتين وثلاثين وثمانمائة .

فقال لي :- هل دوّن رحلته ؟

فقلت له :- نعم لأني أذكر أنه كان يذكرها ويُحيل عليها إلا أني لم أتجاسر عليه مدة حياته بالسؤال عنها لما له من الهيبة وبعد موته فتشت عليها في كتبه فلم أظفر بها.

انتهى ما وجد من هذه الرحلة والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

بهذا تنتهي الرحلة بانتهاء ماوجد منها

لفتة :-

في وقتنا الحاضر ربما تعددت أساليب لفت أنظار الناس نحو ماينفعهم ، وربما أوجد كثير من الذي تصدروا لذلك أساليبا رأوها تتماشى مع عقائد ونفوس أهل الوقت التي سمتها الإنكار وانعدام الإعتقاد الطيب في أهل البيت النبوي !

مع أن المفروض أن يؤمن الكل ببقاء الخير فيهم حتى يفنون من على ظهر الأرض ولكني شخصيا أختلف مع من يرون ذلك وربما هو ساع في طمس ماضيه الجميل من حيث لا يشعر وربما هو يريد أن يجنبه أحداث السن من أهل العقائد الفاسدة ؟

وأقول أن أهل العقائد الفاسدة وضعيفوا الاعتقاد مهما بذلت لهم وأرضيتهم ولو كانت نيتك هدايتهم أو تقريبهم فأنت واهم وقد وقعت في عدة محاذير :-

أولها أنك أخفيت خيرا لديك ، كثير من الناس في حاجة له ، والثاني أرضيت أقواما يصعب رضاهم ولن يلبثوا إلا ويطالبوك بما هو بعده وأنى لك إرضائهم وهم أصلا لن يرضيهم إلا زوالك.

دعونا نحيي قلوبنا بتدوير مناقب رجال ننتسب لهم جميعا سواء كنا من أهل البيت أو القبائل الأخرى فالخير كان في تريم شاملا للكل وقد قيل (حكايات الصالحين جند من جند الله) وكلي تأكيد أن من إبتدأ في قراءة هذه الرحلة لن يضعها حتى يتمها وربما في مجلس واحد ولا أشك أنها ستقذف في قلبه شيء من التأسف لما فاتنا ورحل عنا بعدهم وما فاتنا ليس بالقليل.

عيدروس العيدروس

رجب ١٤٣٤ هـ

مررت بوادي حضرموت مسلما ** فألفيته بالبشر مبتسما رحبا
وألفيت فيه من جهابذة العلا ** أكابر لايلقون شرقا ولاغربا

طينة حضرموت تنبت الصالحين والاولياء عقودا بعد عقود ودأبها وصنيعها ذلك, وإنما أقصد بها السلالة المطهرة من آل محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه الرحلة يمضي بنا الرجل المغربي الذي زار تريم قبل مئات السنين بين عرصات وأزقة تريم المتميزة والتي شهدت على وجود أقوام يصدق فيهم :

إن لله عبادا فطنا ** طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ** أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا ** صالح الاعمال فيها سفنا

رجال شبههم هو بالملائكة نتلوها نحن الآن وكأننا نتلوا قطعة أدبية حشيت بالأساطير ولكن والله ليست كذلك إنها تريم التي لاترام غيرها .. إنها تريم التي تعطي وتعطي وستبقى تعطي .. إنها بلاد العزة والفخر إنها حرم الاقليم " عيدروس العيدروس "

تصميم الغلاف : مصطفى الجنيد | f10@live.in